جمالية المكان في رواية "أشباح الجحيم" للروائي "ياسمينة خضرا

إعداد: أ. د. تحريشي محمد
أ. سماحي رفيقة.
جامعة بشار

الملخص:

يتناول هذا البحث جمالية المكان ويختار رواية من الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وهي رواية "أشباح الجحيم" للروائي "ياسمينة خضرا" لا سيما أن هذه الرواية بالذات حافلة بالأمكنة التي تتجاذب وتتنافر مشكّلة بذلك تضادات ومتناقضات فكانت ترمز للفرح والسعادة من جهة وللحزن والأسى من جهة ثانية، إن المكان في هذه الرواية لم يكن جمادا أبكم أصم وإنما كان ينبض بالحياة، روح تتحرك وتحس وتشعر حاله في ذلك حال الشخصيات.

Abstract:
This research deals with aesthetic of place and for that we have chosen a novel written in French by the Algerian novelist Sirens Baghdad "Yasmina Khadra".This very novel represents many contradictions as it is full of places that seem very close and very far at the same time symbolizing happiness and joyce in one hand and sadness in the other hand.Place here was not dead ، it used to be alive and vibrant like a spirit with feelings representing this in its characters

ياسمينة خضرا:Yasmina Khadra هو الاسم المستعار للكاتب الجزائري محمد مولسهول، ولد بتاريخ 10 يناير 1955 بالقنادسة في ولاية بشار جنوب الجزائر، التحق "خضرا" بمدرسة عسكرية وعمره تسع سنوات، تخرّج منها برتبة ملازم عام 1978 وانخرط في القوات المسلحة. خلال فترة عمله في الجيش قام بإصدار روايات موقعة باسمه الحقيقي عام 2000 وبعد 36 عاماً من الخدمة يقرر "ياسمينة خضرا" اعتزال الحياة العسكرية والتفرغ للكتابة، ويستقر لاحقاً مع أسرته في فرنسا.

يفصح الروائي عن هويته الحقيقية في روايته "الكاتب" ثم تليها "دجال الكلمات" الذي يبرر فيها مسيرته المهنية، وتبلغ شهرته حد العالمية حيث تترجم وتباع كتبه في 25 بلدا حول العالم.

تتطرق أفكار ياسمينة خضرا إلى مواضيع تهز أفكار الغربيين عن العالم العربي، حيث ينتقد الحماقات البشرية وثقافة العنف، ويتحدث عن جمال وسحر وطنه الأم الجزائر، ولكن أيضاً عن الجنون الذي يكتسح كل مكان بفضل الخوف وبيع الضمائر متذرعاً بالدين ومخلفاً وراءه حماماتٍ من الدم.

تلخيص مدونة البحث: نشرت رواية "أشباح الجحيم" للروائي الجزائري "ياسمينة خضرا" عام 2006 عن دار جوليارد ويبلغ عدد صفحاتها 365 صفحة في الرواية الأصل، تلقت الرواية ترجمات للغات عديدة من بينها النسخة باللغة العربية التي صدرت بعد عام واحد 2007 عن دار الفارابي من قِبَل المترجم "محمد ساري" ويبلغ عدد صفحات الرواية المترجمة 382 صفحة، وهي من الحجم المتوسط.

تحكي الرواية قصة شاب عراقي من قرية شبه معزولة عن العالم سكانها من أهل البادية تسمى بـ"كفر كرم"، بعيدة عن الحضارة والتمدن. شاب لا اسم له، شخصية بلا هوية، نشأ الشاب بعيدا عن مظاهر العدوانية والوحشية وانفجارات القنابل المدوية إلا أن نقطة التحول الأساسية في الرواية هي اقتحام الجنود الأمريكيين لمنزل الشاب العراقي وإلحاق المذلة بوالده رأى ما لا يجدر بفتى مثله أن يراه... سقط شرف عائلته أمام ناظريه وفي عقر داره، في حالة إذلال..شاهد الرصاص وهو يخرق جسد أبيه، وعائلته. وفي خضم تلك الأحداث بقي الفتى يعيش حياة مضنية خالية من مظاهر الرفاهية، شاهد كل أنواع الإدانة والإذلال لكل فرد من أفراد القرية التي يقطن بها.

يتحول الفتى من قمة الأمل إلى قمة اليأس ليبدأ رحلة البحث عن الشرف الضائع. يغادر من بغداد ليصل إلى بيروت في رحلة انتقامية، يقول: "أدركت أن لا شيء يبقى مثل سابق عهده.. وبأنني عاجلاً أو آجلاً، ومهما حدث، ومهما سيحدث، حُكم عليّ أن أثأر للعار الذي أصابني"[1]. شق الفتى طريقه والصعوبات تواجهه الواحدة تلو الأخرى ولا تمنحه أدنى فرصة ليرتاح ويسترجع أنفاسه...على الرغم من تعرضه للسرقة وبقائه مشردا في شوارع بيروت؛ إلا أنه بقي يشق طريقه في تلك الشوارع المظلمة.

وجد الفتى عملا لدى أحد الأشخاص بفضل أحد معارفه، قبل بالعمل بالرغم من الأجر الزهيد لكن ما عساه يفعل وهو لا يملك أدنى شيء، ومع

---

[1]ــ ياسمينة خضرا، رواية أشباح الجحيم، ت: محمد ساري، دار سيديا، الجزائر 2009 ص: 133.

مرور الأيام اكتشف البطل أمر رب عمله فقد كان يزاول أعمالا خارجة عن القانون لكنها كانت لمصلحة بلده (على الأقل من وجهة نظره)، ولأنها كذلك؛ قرر الفتى الانخراط في العمل مع رب عمله.

مرت الأيام وهو يتلقى حقنات ويتناول جرعات من أدوية ليكتشف أنه سيحمل الفيروس، فهم يجهزونه ليحقنوه بسم، كي يقتل كل شخص يستنشق الهواء الذي يزفره. ليتم إرساله إلى لندن ليلوث هواءهم ويصرعهم أرضا!

على الرغم من جنونية الفكرة إلا أن الفتى وافق عليها، فهو لم يغادر قريته هباء بل غادرها لينجز شيئا! ليحرك ساكنا! على غرار غيره. يقول:"تتمثل مهمتي في حمل الفيروس. هذا هو، حضّروني جسديا لحمل فيروس. الفيروس. سلاحي الفتاك، قنبلتي، جهازي الانتحاري..."[1]. مرت الأيام وقد حان موعد الرحلة، وصلت لحظة الحقيقة وآن أوان توديعه لتراب بلده والمغادرة لقتل أعدائه... لكن أين ذلك الشعور الذي كان يدفعه للانتقام لنفسه وشرف عائلته وأبناء وطنه.. حتى أنه هو نفسه يشك في نجاح ما يسري في دمه.. لقد تراجع وقرر عدم الذهاب.. وعند مغادرة الطائرة التي كان يفترض به ركوبها أدرك أنه قد أنهى حياته ووضع حدا لها حيث علم أنه ما إن يكتشف رفاقه عدم ذهابه سيحين موعد لقاء حتفه على أيديهم.

فاختار أن يكون آخر منظر تراه عيناه هو أضواء مدينة بيروت التي تتلألأ تحت ظلمات الليل، فانزوى بنفسه أعلى صخرة وأخذ يتأمل ويستذكر أحداثا كان قد عاشها في قريته، يستذكر أشخاصا حنّ إليهم قلبه..لقد

[1] الرواية ص: 326.

انتهى الأمر الآن ومضى أوان الندم...وما إن وصلت السيارات التي يركبها رفاقه حتى نطق بآخر جملة له في قرارة نفسه "–ليعجّلوا بالنهاية"[1].

التناص في الرواية:

إن النّص الحاضر يتخطى ذاته فيأتي بنصوص أخرى يتعالق معها يحاكيها يمتصها أو يتحاور معها، فتتلاقح النصوص الغائبة معه مشكلة عملا سرديا وإبداعا يلمع دلالة ووضوحا وجمالا. فأين تجلت تناصات العمل السردي المدروس؟؟ وكيف صاغها الروائي وعبّر عنها؟؟

1/ التناص الديني: يتمثل التناص الديني في النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة الموظفة في النص الروائي منها:

أ.التناص القرآني: يمثل النّص القرآني الخلفية القارة والأرضية الصلبة التي بنى عليها الروائي عمله السردي، ولا غرابة في ذلك فالروائي مسلم ومتشبع بالثقافة الإسلامية. يقول الروائي على لسان البطل في شأن "كاظم": "فتت القدر مشاريعه إلى مسحوق تذروه الريح بعيدا"[2]، استدعى هذا المقطع السردي قول الله عز وجل: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ مُقتدِرًا﴾[3]، استحضر الروائي الآية الكريمة عبر اللفظ "تذروه الرياح" لكن وظفه تماشيا لأحداث النص الروائي وخدمة للسياق، فالله عز وجل في الآية السابقة شبه الدنيا ومن أقبل عليها بماء اختلط بالنبات فصار حسنا مخضرّا، وما هي إلا مدة يسيرة حتى صار هذا النبات يابسا متفرقا تنثره الرياح وتفرقه وتنسفه في كل جهة فتذهب به،

---

[1]ــ السابق ص:381.

[2]ــالسابق ص:38.

[3]ـ سورة الكهف الآية (45).

وفي المقابل فإن النّص الروائي جاء على لسان البطل عن صديقه كاظم الذي تبددت مواهبه فكان يطمح أن يكون ضارب عود موهوبا ويشكل فرقة موسيقية إلا أنه اختار حياة أخرى غير التي يرغب فيها.

والنّص الغائب وظف رياحا لما فيها من منافع، في حين أنّ النّص الحاضر وظف ريحا لما فيها من ضرر، وعبر هذا الاستحضار عن طريق المخالفة يتضح المعنى ويبرز إلحاح الروائي على فكرته والتأكيد عليها.

يذكر الروائي في سياق آخر عن الأمريكان: "ستكون نهايتهم جيوش المشركين التي أرادت تدمير مكة، أرسل الله عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول"[1]، ويقول أيضا:" لا أرى إلا طائراتهم المروحية –طيرهم الأبابيل– التي تردمنا تحت قنابلها الحارقة. سخرية واستهزاء"[2]، جاء المقطع مكررا على لسان ياسين: "نحن طيوره الأبابيل، نحن غضبه"، يعيد المقطع نفسه:"– نحن غضب الله، نحن الطير الأبابيل..."[3] ، تعالقت المقاطع السردية والرواية دلاليا عبر استحضار الروائي للآيات الكريمات: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[4]، جاءت المقاطع السردية عن الأمريكيين، فطائراتهم المروحية هي طيرهم الأبابيل وقنابلهم التي دمرت العراق، أما الآيات القرآنية فتحدثت عن أصحاب الفيل عندما قصدوا الكعبة لأجل تخريبها، وما فعل الله تعالى بهم من إهلاكهم وصرفهم عن البيت فأرسل الله عليهم طيرا رمتهم بحجارة شديدة الحر، وعن طريق تحوير الروائي

---

[1]ـأشباح الجحيم، ص: 101.

[2]ـالسابق، ص: 103.

[3]ـ السابق، ص: 104.

[4]ـ سورة الفيل الآيات (3، 4، 5).

للنص الغائب واستنصاصه وفق ما يخدم الحاضر، اتضحت الدلالات التي قصدها الروائي ما أدى إلى جمالية النص وإثباته.

يقول الروائي في موضع آخر: "كان السيد يتصبب عرقا. الغضب ساطع على قسمات وجهه، ولكنه تمكن من كظم غيظه."[1] ، "تكظم غيظنا"[2]، "كظم شاكر غيظه كي لا ينقض عليّ"[3]، تعالقت المقاطع والرواية دلاليا من خلال استحضار الآية القرآنية: ﴿وَسَارِعُواْ إِلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4]، كرّر الروائي المقاطع ليلح على موقفه وفكرته كونه يكتب بلغة نورانية تشع دلالات وإيحاءات تأخذ بفكر القارئ إلى واحة الهدى ومحراب التوحد إنها القدرة لرسم آفاق للطهر ونبراس يوجه العقل للتأمل في العظمة الإلهية. وعليه يمكن القول إن ذهن الروائي التصق بالمقدّس عبر الدلالات المكثفة والأبعاد الأثيرية التي تراءت كتيار متدفق من الحقائق فأكدت الوقائع والأحداث.

ب. التناص الحديثي: استحضر الروائي في عمله السردي الحديث الشريف ونهل من معينه، ومقاطع سردية عديدة تدل على ذلك منها: ما جاء على لسان بطل الرواية: "مسجدنا حيث ينبغي الاستيقاظ باكرا يوم الجمعة كي نجد مكانا في الصفوف الأولى"[5]، يردف قائلا:"يوم الجمعة بعد

---

[1]ـ أشباح الجحيم، ص: 237.

[2]ـ السابق، ص: 344.

[3]ـ السابق، ص: 353.

[4]ـ سورة آل عمران الآيتين (134).

[5]ـ أشباح الجحيم، ص: 35.

الصلاة، يأتون لمشاهدة أحدهم يسلّم رأسه لمقص الحلاق"[1]، استحضر الروائي الحديث الشريف:" عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة. فيه خلق آدم. وفيه أدخل الجنة. وفيه أخرج منها"[2]،وردت جملة من الأحاديث الصحيحة استنبط منها بعض العلماء وجوب الغسل، وذهب بعضهم إلى استحبابه. من ذلك حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – في الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل"[3]،فالغسل والطهارة والطيب والحلاقة تكون قبل الصلاة لا بعدها كما جاء في المقطع السردي. وعبر ما سبق تتضح المفارقة والتحوير والانزياح عن المألوف الذي بنى عليه الروائي مقطعه السردي.

علاوة على ما ذكر يمكن القول إن "ياسمينة خضرا" اعتمد على التراث الديني، لما في ذلك من تقوية المعنى وجمال اللفظ، وهذا يدل على أنه ذو ثقافة دينية واسعة حيث قام بامتصاص دلالات المفردات المتناصة، فأكسب الخطاب الروائي قيمة فنية خاصة.

2/ التناص الشعبي:

التراث الشعبي مصدر استلهام الروائي فهو منبع يستقي منه الروائي أدواته الفنية والإجرائية، ولحضور النص الشعبي في العمل السردي أثر بليغ في عملية الاتصال والتواصل بين الكاتب والقارئ، فهو تعبير عن واقع الشعب وهمومه ومشاكله وكذا أفكاره، ومن ثمة كانت له جمالية

---

[1]ـ السابق، ص: 44.

[2]ـ رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة، رقم الحديث: 854، ص:387.

[3]ـ المصدر السابق، رقم الحديث: 844، ص: 383.

خاصة تتميز بالغنى والثراء. جاء نص "أشباح الجحيم" محمّلا بتراث غير مادي من خلال الأمثال الشعبية والحكم والعادات والطقوس والأغاني، من بينها قول الروائي على لسان البطل: "قريتنا ليست جنّة الريحان ولكن– الضيق في الذهنيات وليس في القلوب–كنا نحسن استغلال أدنى نكتة كي نطلق العنان للضحك والقهقهات"[1]، يكرّر الروائي المثل بصيغة أخرى بقوله على لسان عمر صديق البطل: "الضيق في القلوب وليس في البيوت. ربك حلاّل لكلّ المشاكل"[2].

تداخل المقطعان والمثل القائل: "الضيق في القلوب"، مفاد هذا المثل أن المكان يتسع لأشخاص عديدين حتى وإن كان ضيّقا مادام القلب واسعا، أما إذا ضاق القلب ضرعا بالضيف أو الزائر، فحتما سيضيق به كل شيء حتى المكان الرحب.

لذا يتبين في المقطع الأول أن قرية "كفر كرم" على الرغم من كونها قرية صغيرة ضيقة إلا أن أهلها كرماء وقلوبهم تتسع للجميع، يتسامرون ويضحكون ويلهون عند سماعهم لأدنى نكتة من أحد الأشخاص، أما المقطع الثاني فيبين سعة صدر عمر واستقباله لصديقه ببغداد على الرغم من ضيق الغرفة التي لا تكفي لاحتضان ثلاثة أشخاص (عمر وصديقيه). نستشف من التناصين كرم أهل العراق وخاصة "كفر كرم" و"بغداد"، ومحافظتهم على التراث العربي المتمثل في كرم الأجداد، هذا ما يجعل الخطاب السردي أكثر دقة وواقعية ووضوحا.

يقول الروائي على لسان البطل:"يقول المثل الشائع، إذا غلقت بابك في وجه صراخ جارك، سيصلك من النافذة. لا أحد في مأمن عن نوائب

---

[1] ـأشباح الجحيم، ص: 36.

[2] ـ السابق، ص: 194.

الدهر. الأيام دوال يوم لك ويوم عليك"[1]، إن هاته السلسلة من الأمثال والحكم التي وظفها الروائي تشي بدلالات عديدة: التحدي، الصبر، كظم الغيظ، سعة الصدر، القوّة عند الشدائد...فالمقطع السردي حمل تناصات: فالتناص الأول هو المثل الشعبي الذي يدل على أن الإنسان لا يمكنه الابتعاد عن المصائب، ومثل لذلك بغلق الباب في وجه صراخ الجار الذي سيأتي من النافذة حتما، إذ لا يمكن التصدي للمصائب التي تأتي أو الهروب منها، ثم ينتقل إلى المثل الثاني الذي هو نتيجة للأول لا مهرب من المشاكل والأزمات، بعدها يذكر الحكمة القائلة "الأيام دول فيوم لك ويوم عليك" فالأيام يتداولها الخالق بين الناس، فقد يفرح الإنسان اليوم ويحزن غدا.

وهذا حال البطل الذي كان مستقرا هادئا وبعد دخول العساكر واقتحامهم لمنزله والتمثيل بأبيه اشتد غضبه وحزنه لما حدث، واتجه إلى بغداد عازما على الثأر. وعليه فإن الحكمة تعد المرجع الصحيح الصائب فهي فكرة لجأ إليها الروائي لتبرير موقف شخصياته وتنميق كلامها محافظا على أصالتها.

يوظّف الرّوائي مثلا آخر في قوله:"–إن من يتغذى بجبن الغير يخصب جبنه الخاص"[2]، استدعى المثل الشعبي: "إلي كلى دجاج الناس يسمّن دجاجه"، أي إذا أكرمك الآخرون فكن على استعداد لردّ الدّين بإكرامهم، أتى هذا المثل على لسان السيّد مخاطبا ياسين الذي ازداد عنفا وكان يتلذذ بإهانة أهل القرية ومن بينهم صلاح الذي شبهه بالمرأة عند بكائه لفقده صهره "سليمان" قائلا: كيف تعرض نفسك للبهدلة بهذه الكيفية.

---

[1]ـ السابق، ص: 66.

[2]ـ السابق، ص: 89.

بكيت مثل إمرأة، وهذا غير مقبول بتاتا"[1]، ما دفع السّيد بأن يرد على ياسين منتفضا لهاته الإهانة التي لا يقبلها في بيته، فمن يهين الآخرين ويتلذذ لأذيتهم سيأتي يوم فيتأذى ويتلذذ الآخرون لعذابه، وظّف الروائي هاته الشخصية ليبين كيف هيئت لها مساحة ثقافية تراثية كافية.

يقول الروائي على لسان شاب ملتح "–إنّ هؤلاء الأمريكان الكفرة لن يدخلوا الجنة"[2]، يظهر عبر هذا التناص تفكير العربي ونظرته للأمريكان في العراق بأنهم كفرة يقتلون، يشردون، ويخربون، قلوبهم خالية من الرأفة والرحمة، فالكافر في النار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾[3].

وأفعال الجيش الأمريكي في الدنيا من تدمير للعراق البلد العربي المسلم سيعاقب عليها في الآخرة ولن يشم رائحة الجنّة، لذا استحضر هذا التناص المحمّل بأبعاد تراثية تنم عن وعي الشخصيات وشعورها النضالي إزاء عدوها، وهذه رسالة مزدوجة بين التعبير عن جرح العراقيين وإدانة الجيش الأمريكي الذي ينتظر عقابه في الآخرة.

يقول الروائي: "إنّ الشيطان هو الذي يوسوس لك"[4]، ورد هذا التناص على لسان هارون منتفضا وغاضبا موجّها كلامه لمالك الذي يرد عليه: "كلما وقعت في مشكلة إلا وحمّلت المسؤولية للشيطان"[5]، يتضح عبر هذين التناصين صياغة الروائي للفكر الشعبي الذي كلّما همّ بفعل منكر

---

[1]ـ السابق، ص: 85.

[2]ـ السابق، ص: 101.

[3]ـ سورة الأنفال الآية (14)

[4]ـ أشباح الجحيم، ص: 102.

[5]ـ السابق، ص، ن.

ربطه بوسوسة الشيطان، متناسيا النفس الأمارة بالسوء ذلك أن هارون تلا على الحضور آيات من سورة الفيل، فصرخ مالك قائلا: ترّهات، فرد عليه هارون أن ما قلته هو من وساوس الشيطان فمن غير المعقول أن يجرؤ أحد على كلام الله وخاصة إذا كان عربيا مسلما، لذا أراد أن يوضح الروائي تذمر بعض الشخصيات من كل شيء نتيجة ما حل بهم من بلاء، مجازر رهيبة، عساكر مدجّجة بالسلاح، وشعب أعزل لا يستطيع فعل شيء، وعبر هذا يتجلى خرق الروائي للمعتاد الذي ترجمه الواقع المرير للشعب العراقي، لذا اتخذ القارئ موقف المساند للشعب العراقي الناقم على العدوّ.

يورد الروائي تعبيرا شعبيا بصيغته اللغوية دون تغيير على لسان البطل: "انفجرت شتائم أخرى من عمق البهو، يندى لها الجبين"[1]،يظهر عبر هذا المقطع صفات الجيش الأمريكي بكلامه القبيح وشتائمه للأسر العربية العراقية وخاصة عائلة البطل عند اقتحامهم لمنزله.

لم يرد الروائي الإفصاح عن تلك الشتائم لقبحها وسوئها، وليمنح القارئ حق التأويل الذي يترجمه هذا المشهد المأساوي إخراج والد البطل ومعاقبته والتنكيل به ثم قتله، هلع الأم، ارتباك الأولاد، كل هاته المشاهد كفيلة بتصور المجتمع العراقي الذي يعيش في نير الاستعمار الأمريكي الغاشم، ومعاناته المستمرة التي يلقاها كل حين.

ينتقل الروائي فيذكر مثلا على لسان كاظم واصفا بغداد لصديقه:" ما تراه ليس إلا غيضا من فيض"[228]، ومفاد هذا المثل أن بغداد لا يمكن وصفها، أما المناظر التي رآها البطل وكان منبهرا بها ما هي إلا نقطة من بحر،

---

[1]ـ السابق، ص: 131.

[2]ـ السابق، ص: 170.

ومعروف أن بغداد قبل الحصار كانت مدينة ساحرة بمناظرها وأزقتها ودجلتها وثراء مكتباتها. وظّف الروائي مثلا آخر معبرا عن تجربة إنسانية بقوله: "اختلط الحابل بالنابل"[1]، وللمثل مورده وأصله ففيما مضى كانت في المعارك توزع مهمة رمي النبال والسهام على جنود، ومهمة إمساك حبال الخيل والجمال على جنود آخرين، وعند اشتداد الوطيس والتحام الجيشين المتحاربين وارتفاع غبار المعركة، لا يُعرف الحابل من النابل، أي لا يعرف من يمسك الخيل والجمال من رامي السهام، من هنا جاء قولهم: اختلط الحابل بالنابل، حيث جاء هذا المثل على لسان البطل الذي كان في حالة يرثى لها، يشاهد عن كثب الشرطة وهي توقف سيارة إسعاف مستعجلة فانتفض الطبيب مبينا للشرطي أنه أمر مستعجل، ما أدى بتفاقم الأمر إلى الضربات العنيفة التي وجهها أحدهما للآخر، فأمسك الشرطي بمسدسه وأطلق النار على الطبيب، ما أدى إلى اختلاط الأمور وانقلاب الموازين، وعليه وظّف الروائي هذا المثل ليبرز أهميته في تشكيل خلاصة تجربة واقعية عاشها الإنسان.

يردف البطل قائلا: "صرخ شرطي باتجاهي..–هيا، هيا، طِر من هنا..."[2] ، إن استعمال الروائي لمثل هذا التعبير "طر من هنا" الذي يدل على الابتعاد عن المكان والجلاء منه، ذلك أن البطل كان شارد الذهن جائعا لا يعلم أين يذهب فوقف قرب نقطة المراقبة ما أدى بالشرطي إلى طرده، يوحي هذا التناص بواقعية الخطاب السردي الذي جاء محمّلا بثقل معرفي تراثي سواء عن قصد أو عن غير قصد.

---

[1]ــ السابق، ص: 186-187.

[2]ــ السابق، ص: 190.

ورد على لسان السيّد ابن الصقر قوله: "على بركة الله"[1]، جاء هذا المقطع على لسان "السيد" مبديا موافقته على عمل البطل عنده وهو مسكه لدفتر المحاسبة، بعدّه طالبا جامعيا، سنة أولى آداب، لذا أبدى السيد ارتياحه للموظف الجديد متمنيا له البركة وبدء العمل، يتبين عبر هذا المقطع امتصاص الروائي للنص الغائب ما أدى إلى توليد دلالات جديدة، ترتكز إلى الواقع.

ثم ينتقل الروائي فيذكر على لسان الدكتور "جلال" مستقبلا بحرارة صديقه محمد سين: "الله، يا بابا...واش ما الريح جابك يا حبيبي؟ واوو..."[2]، يبرز الروائي عبر هذا التناص تعبيرا متداولا بين الأفراد وهو تساؤل جلال وتعجبه واندهاشه عند رؤيته لصديقه الذي لم يره منذ أمد بعيد، ففرح بقدومه إذ يسأله عن الريح التي أتت به، وهذا يدل على بعده واشتياقه له.

فمحمد سين يقطن بباريس وسافر إلى بيروت والتقى بصديقه جلال هناك، وكذا لفظة "واوو" التي دلت على الدهشة فالصديق لم يخبر جلال بقدومه كما أن هذا الأخير لم يكن على علم بذلك. فرب صدفة خير من ألف ميعاد، إن هاته التعابير التي وظفها الروائي لوجه مشرق من وجوه التراث تعبر عن حال الأمة وما تحمله من أحلام وهموم وتناقضات في حياتها.

علاوة على ما ذكر يمكن القول إن التناص الشعبي كان له حظ أوفر في الخطاب السردي سواء الأمثال الشعبية أو الحكم أو العادات والتقاليد أو تعابير شعبية، ولم يكتف الروائي بتوظيف التراث الشعبي بل تعداه إلى التاريخي فما كان حظ الخطابات السردية من هذا التراث يا ترى؟

---

[1]ــ السابق، ص: 214.

[2]ــ السابق، ص:336 .

3/ التناص التاريخي:

اتصل العمل السردي اتصالا وثيقا بالتاريخ تفاعل معه، واستنصص أحداثه إذ انطلق الروائي من الماضي ليعود بنا إلى الحاضر، وما يقع فيه، ومن بين التراكيب الدالة على ذلك قوله على لسان البطل: "وصلت إلى بيروت منذ ثلاثة أسابيع، أكثر من عام بعد اغتيال الوزير الأول رفيق الحريري حيث أدركت سوء نيتها بمجرد أن حطني التاكسي على الرصيف. لم يكن حدادها إلا واجهة وذاكرتها مصفاة قديمة متعفنة؛ لهذا كرهتها منذ البداية."[1] ، استحضر الروائي الأوضاع التي كانت تعيشها بيروت إثر اغتيال وزيرها الأول "رفيق الحريري"، ذلك أنها كانت تزعم بإقامة الحداد لكنها في حقيقة الأمر كانت تنظم مهرجانات وأفراحا وما الحداد إلا حبر على ورق، فـ"رفيق الحريري" (1944-2005)، هوزعيم لبناني ورئيس وزراء لبنان الأسبق، له بصمة في التاريخ العربي، بإنهائه للحرب الأهلية اللبنانية وإعمار لبنان بعدها.

وعليه فإن استحضار تلك الشخصية ترجع بذهن القارئ لاستذكار الأحداث التاريخية والمكانة التي احتلتها تلك الشخصية على صفحات تاريخ لبنان على وجه الخصوص.

جاء في سياق آخر: "أعرف فقط أن الأمر يتعلق بأكبر عملية لم يقم بها أحد في أرض العدو، ألف مرة أكثر صداما من اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر..."[2] ، إن أحداث 11 سبتمبر 2001 هي مجموعة من الهجمات الإرهابية شهدتها الولايات المتحدة حيثتم تحويل اتجاه أربع طائرات نقل مدني تجارية وتوجيهها لتصطدم بأهداف محددة نجحت

---

[1]ــ السابق، ص: 08.

[2]ـ السابق، ص: 21.

في ذلك ثلاث منها وعبر هاته الحادثة الأليمة شهد الاقتصاد الأمريكي ركودا بعدما كان يعاني تباطؤا في النمو قبيل الهجمات، وظف الروائي هذه الحادثة التاريخية المؤثرة ليبين صغر صدمتها إذا ما قورنت بالعملية التي يريد البطل تنفيذها فالضرر في هاته الحادثة يتضاعف والآلام تتولد.

ينتقل الروائي إلى موقف آخر فيتحدث عن البطل قائلا على لسانه: "التحقت بجامعة بغداد شهورا قبل الاحتلال الأمريكي للعراق"[1]، استحضر الروائي الحدث التاريخي وهو حرب الخليج الثالثة واقعة عسكرية حدثت في العراق سنة 2003 أدت إلى احتلال العراق عسكريا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ومساعدة دول مثل بريطانيا وأستراليا وبعض الدول المتحالفة مع أمريكا، وبدأت عملية غزو العراق في 20 مارس 2003 من قبل قوات الائتلاف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، فتسببت هذه الحرب بأكبر خسائر بشرية في المدنيين في تاريخ العراق وتاريخ الجيش الأمريكي في عدة عقود، انتهت الحرب رسميا في 15 ديسمبر 2011 بإنزال العلم الأمريكي في بغداد وغادر آخر جندي أمريكي العراق في 18 ديسمبر 2011[2]، وظّف الروائي التاريخ عند حديثه عن البطل وبالتاريخ استطاع القارئ معرفة الأحداث إذ مزج الروائي التاريخ بواقع العصر جامعا بين الماضي والحاضر وفق واقع معرفي جديد وضمن إطار فني خال من المفارقة.

---

[1]ـ السابق، ص: 29.

[2]ـ برخصة المشاع الإبداعي، غزو العراق، 2016/04/23، ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، الموقع الإلكتروني: ar.wikipedia.org/wiki

يمضي الروائي في استحضار التناص التاريخي قائلا على لسان البطل: "كان مشروع الأمم المتحدة "الغذاء مقابل البترول"[1]، طرحت الولايات المتحدة مشروع قرار معدل بشأن رفع العقوبات عن العراق تضمن دورا أكبر قليلا للأمم المتحدة في عراق ما بعد الحرب ووفقا لنص مشروع القرار المعدل الذي حصلت وكالة رويتر على نسخة منه تدعو الولايات المتحدة إلى وضع عائدات البترول العراقي في صندوق "النفط مقابل الغذاء" اقترح مؤيدو العقوبات برنامج النفط مقابل الغذاء في القرار رقم 986 كحل مؤقت للأزمة الإنسانية. إلا أن سياسة الإيقاف والحجز التي تمارسها الولايات المتحدة قد أهلكت البرنامج الذي فشل في تحسين ظروف التغذية والصحة للمواطنين العراقيين والذين تتراجع أحوالهم باستمرار ما أدى إلى ارتفاع عدد وفيات الأطفال، وهكذا فإن الإصلاحات المتعددة التي تمت ومن ضمنها القرار رقم 1284 أثبتت عدم فعاليتها لحل هذه المشاكل[2]، هذا ما أراد الروائي توضيحه عبر المقطع السابق على لسان البطل عند حديثه عن صديقه كاظم الذي يئس من حياته بعدما فقد زوجته الأولى جراء التهاب بسيط في الرئة ولانعدام الأدوية الأساسية فقدت الحياة إثر مشروع أمريكا "الغذاء مقابل البترول"، الذي كانت سلبياته أكثر من إيجابياته والضحية الكبرى لهذا المشروع هو الشعب العراقي، وما استحضار النص الغائب إلا لإبراز المأساة التي شهدتها العراق في تلك الآونة.

---

[1]ـ أشباح الجحيم، ص: 38.

[2]ـ اللجنة العربية لحقوق الإنسان، العقوبات الاقتصادية على العراق، تقرير أعده خمسة خبراء دوليين في موضوع العقوبات، تر عن الانجليزية: مجد الشرع، أكتوبر، 2002 فرنسا، الموقع الإلكتروني:www.achr.eu/art27.htm

يذكر الروائي في سياق آخر التاريخ بقوله: "ما عأسهم يفهمون في عالمنا نحن، الذي يحمل أروع الصفحات في الحضارة البشرية، ...ماذا يعرفون عن بلاد الرافدين... وهارون الرشيد"[1]، يتساءل السيد صديق البطل في هذا المقطع عن أمريكا التي دنست حضارة العراق لأنها تجهل عنها الكثير وكأنه بهذا الاستفهام المجازي والتساؤل الإنكاري لا يريد جوابا بقدر ما ينفي ما تقوم به أمريكا من أعمال شنيعة تجاه العراقيين، هاته الأعمال التي تتنافى والقيم الإنسانية لذا حمل هذا المقطع طابع السخرية والاستهزاء من العدوّ، واستحضر شخصية هارون الرشيد التاريخية وهو الخليفة العباسي الخامس، يعدّ من أشهر الخلفاء العباسيين، فهو الخليفة الورع المتدين الذي تسيل عبراته عند سماع الموعظة والمجاهد الذي أمضى معظم حياته بين حج وغزو، يقول عنه ابن خلّكان: كان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي، فكان يحج عاما ويغزو عاما، وهو أول خليفة عباسي قاد الغزو بنفسه، حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة[2]، استطاع الروائي توظيف هذه الشخصية التاريخية العربية ذات الدلالات الإيجابية وأعاد صياغتها وفق ما يتناسب وانفعالاته الثائرة تجاه الغرب الذين طمسوا تاريخ الشعب المستعمَر فجاء التوظيف حاثّا على تذكّر شخصيات كان لها صيت في التاريخ المجيد وتعريف الغرب الذي يجهل قداسة التاريخ بالنسبة لأبنائه.

---

[1]ـ أشباح الجحيم، ص: 221.

[2]ـ ينظر: ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972.

ثم يتحدث في السياق نفسه عن أمريكا قائلا: "ليسوا إلا مرتزقة في خدمة اللوبي المالي العالمي"[1]، يتحدث الروائي عن الأمريكيين على لسان السيّد إذ شبههم بالمرتزقة وجاءت هذه اللفظة في معجم الوسيط: مرتزقة: هم أصحاب جرايات ورواتب مقدّرة[2]، فهم يخدمون جماعة الضغط اللوبي وتعد هذه الجماعة من أركان الشورية والديمقراطية حالها حال الأحزاب ومؤسسات المجتمع الديمقراطي في الأنظمة الديمقراطية فأي جماعة بحاجة إلى لوبي في الوطن وخارج الوطن وفي مؤسسته الأم وفي كل مؤسسة من مؤسساته بشكل أو بآخر، فاللوبي يقوم بدور الوسيط بين مؤسسات المجتمع المدني التي تمثل الشعب من جهة والحكومة والبرلمان من جهة أخرى، فحين ينعدم اللوبي أو يضعف يؤدي ذلك إلى ضعف في العلاقة والتفاعل بين المؤسسات المذكورة والحكومة والبرلمان وتزداد الهوة بينهما وبالتالي تضعف العلاقة بين الشعب من ناحية والحكومة والبرلمان من ناحية أخرى، فالشعب بعد أن يختار ممثليه في البرلمان والحكومة عبر الانتخابات لا يتركهم يتصرفون لوحدهم كما يرون وحتى الانتخابات القادمة بل تتم متابعة أولئك والضغط عليهم عبر اللوبيات المختلفة، فاللوبي عبارة عن هيئة أو جماعة قانونية منظمة تدافع عن قضايا أو مواقف أو مصالح معينة محددة لدى السلطات العامة في الدولة فتلعب دوراً محورياً وهاماً في الحياة السياسية حتى بات معروفاً بأن القرارت يعدها أو يصنعها اللوبي وينحصر دور سلطات الدولة في إضفاء الصفة الرسمية على تلك القرارت، وأمريكا تنادي بشعارات حقوق الإنسان واحترام

---

[1]ــ أشباح الجحيم، ص: 222.

[2]ــ معجم الوسيط، باب الراء، ط04، 2004، ص: 342.

الحريات لكنها أولى الدول خرقا وانتهاكا لهاته الحقوق عبر الجرائم التي يفصح عنها التاريخ، وخاصة ما يتعلق بالعراقيين من تعذيب وقتل وتدمير، فهم لا يفرقون بين الشيخ والطفل، الرجل والمرأة.

لذا جاء هذا المقطع محملا بدلالات الغضب والثوران لما فعله جنود الأمريكان في حق والد البطل الذي نكلوا به أشد تنكيل أمام أسرته، وهذا ما أفزع أصدقاء البطل (السيد، ياسين، التوأمان: الحسن، الحسين).

ينتقل الروائي إلى سياق آخر واصفا بيروت في قوله: "بيروت هي بيروت لا تتغير، برغم شبح الحرب الأهلية الذي يحوم حول ولائمها، تتصرف كأن شيئا لم يكن"[1]، استدعى الروائي في تاريخ لبنان الحرب الأهلية اللبنانية وهي حرب دموية وصراع معقد دام لأكثر من 15 عاما و7 أشهر في لبنان 13 أبريل 1975 إلى أكتوبر1990، على الرغم من الحرب التي دامت أعواما حيث شبهها البطل بالشبح، وعلى الرغم من الخراب والدّمار اللذان أفرزتهما الحروب عادة، إلا أن لبنان كما وصفها البطل بقيت محافظة على جمالها وسحرها، وكأن الحرب لم تقم، وعبر هاته المفارقة بين ما كانت عليه لبنان وما كان من المفروض أن تكون عليه تتضح جمالية التناص الذي سعى الروائي لإبرازه.

علاوة على ما ذكر يتضح أن الكاتب استحضر التاريخ من خلال تلك الأحداث المعروضة والشخصيات التاريخية، واستطاع مزج التاريخ بالأحداث الفنية وعبر هاته الازدواجية اتضحت الجمالية الفنية ما جعل القارئ مشاركا لمجريات الأحداث، متجاوزا التقريرية إلى الفنية، واستدعاء

[1]ـ أشباح الجحيم، ص: 333.

التاريخ لم يكن اعتباطيا هامشيا وإنما كان عن قصد لإبراز الحقائق ما أدى لاصطباغ النصوص الإبداعية بصبغة الديمومة والاستمرارية والخلود.

4/ التناص الجغرافي:

ذكرت مواقع جغرافية عديدة في الرواية من بينها قرية "كفر كرم" التي جرت فيها الأحداث في الصفحات الأولى من الرواية، يقول البطل: "ولدت بكفر كرم، وهي قرية نائية في وسط صحراء العراق؛ إنها كتومة إلى حد أنها غالبا ما تذوب في السراب ولا تظهر إلا عند الغروب"[1]، وعبر هذا الوصف يتضح للقارئ بدوية البطل واعتزازه بقريته المحافظة إلا أنه سرعان ما يتحول من شاب عاش في قرية منعزلة إلى بطل يوكل بتنفيذ كبرى العمليات. لذا يشكل الموقع الجغرافي الانطلاقة التي عبرها حدّد البطل مصيره.

ينتقل الروائي إلى موضع آخر قائلا: "في حقيقة الأمر، إذا كانت علاقاتنا تتسمم، فبسبب الأخبار التي تأتينا من فلوجة وبغداد والموصل والبصرة، في حين نحن نقتات على بعد سنوات ضوئية من المأساة التي تدمّر بلدنا"[2]ذكر الروائي مواقع جغرافية عديدة هي: الفلوجة وهي مدينة عراقية تعني في اللغة: الأرض الصالحة للزراعة، وبغداد هي عاصمة جمهورية العراق، وهي أكبر مدينة في العراق وثاني أكبر مدينة في الوطن العربي بعد القاهرة. أما الموصل مركز محافظة نينوى وثاني أكبر مدينة في العراق من حيث السكان بعد بغداد، ثم ينتقل لذكر البصرة وهي ثالث أكبر مدينة في جمهورية العراق ومركز محافظة البصرة، تقع في أقصى جنوب العراق على الضفة الغربية لشط العرب وهو المعبر المائي الذي

---

[1]ـ السابق، ص: 08.

[2]ـ السابق، ص: 62.

يتكون من التقاء نهري دجلة والفرات، وتعدّ هاته المواقع الأربعة مدنا عراقية قريبة من كفر كرم، تلك القرية المنعزلة التي تأتيها الأخبار من المواقع الجغرافية المذكورة فهذه الأخيرة تمثل المدد التي به تستطيع تلك القرية المعزولة اكتشاف المستجدات وأخبار العدو وأعماله الشنيعة، أما كفر كرم فهي تلك المنطقة المقصاة التي لا تحلق فيها مروحيات العدو وعلى الرغم من ذلك إلا أن أهلها متذمرون من الخراب الذي حصل لبلادهم "العراق" بعدّ المنطقة جزء منها، يقول البطل: "لم تحلق طائرة مروحية واحدة على منطقتنا؛ ولا عكرت دورية عسكرية هدوء قريتنا، إن هذا الشعور الذي يقصينا نوعا ما من التاريخ يتحرك بداخلنا"[1].

يقول الروائي ذاكرا أوروبا في قوله: "عند التحاقهم بأوروبا، فكروا أنهم عثروا على وطن لعلمهم وعلى أرض خصبة لطموحاتهم."[2] ، تعد أوروبا شبه جزيرة كبيرة، وقارة صغيرة نسبيا مقارنة ببقية القارات لكن قارة أستراليا أصغر منها، وكلمة أوروبا أصلها إغريقي وتعني الوجه العريض. يتحدث الروائي في هذا المقطع على لسان الدكتور جلال في حديثه مع البطل عن أبناء العرب الذين تبنوا فكر أوروبا ومفاهيمها الزائفة (الحرية، حقوق الإنسان، العدالة...)، فأوروبا كما صورها الروائي بمثابة موقع جاذب لمن تبنى الفكر الغربي من العرب، ويتضح أن الروائي على دراية تامة بما يحدث لأبناء الغرب وغوايتهم للوقوع في فخ أوروبا التي تستقطب إليها ملايين العرب بهدف طمس هويتهم وتخليهم عن أصالتهم واعتناقهم للقيم الغربية.

---

[1]ـــ السابق، ص، ن.

[2]ـ السابق، ص: 19.

ينتقل الروائي إلى ذكر نهر دجلة قائلا: "–في الساحات العمومية، على ضفاف نهر دجلة، ... كنت أقضي الليل في المكان الذي تخونني فيه قدماي"[1]، ذكر الروائي نهر دجلة وهو نهر ينبع من جبال طوروس، جنوب شرق الأناضول في تركيا ليدخل بعد ذلك أراضي العراق عند بلدة فيش خابور، ويصبّ في النهر مجموعة كبيرة من الروافد المنتشرة في أراضي تركيا وإيران والعراق، تقع بغداد على نهر دجلة، يظهر أن هذا المكان الذي ذكره الروائي كان بمثابة المتنفس الذي كلما يئس البطل يأتي عنده لطرد الملل أو يذهب إلى المسجد الذي يحتضنه.

يستدعي الروائي مواقع جغرافية في قوله: "ماذا يعرفون عن بلاد الرافدين، عن العراق العجيب الذي يدوسونه بأقدامهم العفنة؟ عن برج بابل والحدائق المعلقة"[2]، فالعراق عجيب بما يزخر به من معالم وما يصب فيه من أنهار كنهري دجلة والفرات لذا سمي ببلاد الرافدين، إلا أن أمريكا قامت بتدنيس تلك المقدسات، وعبر توظيف الروائي لهذا الوصف "أقدامهم العفنة" يستحضر القارئ جرائم أمريكا في حق الشعب العراقي، كما يبين هذا المقطع استخفاف الروائي بهم، وقد نجح هذا التوظيف في إبراز الصورة الحقة لمضمون الأمريكيين وكشف حقيقتهم التي يخفونها بشعاراتهم الوهمية، يردف قائلا: "انطلقت في شوارعنا أكبر مواجهة في التاريخ، صدام الكون: بابلون ضد ديزناي لاند، برج بابل ضد مملكة ناطحة السحاب، الحدائق المعلقة ضد غولدن غايت بريدج"[3]، ذكر الروائي المقطع الأول على لسان البطل إذ بيّن جهل أمريكا لمعالم العراق الأصيلة

---

[1]ـ السابق، ص: 199.

[2]ـ السابق، ص: 221

[3]ـ السابق، ص: 222.

وعبر الاستفهام المجازي يظهر أن الروائي يستهزئ بأمريكا ويستنكر جرائمها في العراق، إذ أنها لم تحترم قداسة تلك المعالم الأثرية، ثم يوضح في المقطع الثاني الثنائيات الضدية والمفارقات بين معالم العراق وأمريكا، وذاك الصدام بين الحضارتين، الذي سماه بـ"صدام الكون"، فبابلون وهو إحدى الفنادق الكبرى ببغداد يطل على نهر دجلة يقابل ديزناي لاند هاته المدينة السياحية مدينة الأحلام والملاهي التي تم فتحها لأول مرة في 17 يوليو 1955، بكاليفورنيا وتملكها شركة والت ديزني الأمريكية وبقربها فنادق، وتعد من المناطق السياحية، ثم ينتقل ليذكر برج بابل وهو مبنى فيمدينة بابل بالعراق، برج ضخم طويل وعريض، ذو قاعدة تبلغ 92 مترا، ويرتفع فوق هذا البرج برج آخر ويرتفع على هذا الأخير من جديد برج آخر حتى يصل العدد إلى ثمانية أبراج وقد بني الدرج الذي يرقى إليه من الخارج بشكل لولبي يحيط بكل الأبراج، ونجد في وسطه محطة ومقاعد للاستراحة يجلس عليها الذين يرتقونه ليستريحوا، وقد ورد ذكره في التوراة، تقابله مملكة ناطحة السحاب مبنى شديد الارتفاع، ويعد ارتفاع مبنى لـ 150 متر مؤهلاً له بأن يطلَق عليه اسم ناطحة سحاب، وتعد مدينة شيكاغو الأمريكية محل ميلاد ناطحات السحاب، ثم يذكر الروائي حدائق بابل المعلقة وهي إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم، وهي العجيبة الوحيدة التي يُظن بأنها أسطورة، يُزعم بأنها بنيت في المدينة القديمة بابل بالعراق، في مقابل غولدن غايت بريدج وهو عبارة عن جسر بكاليفورنيا، إن المعالم الثلاثة التي ذكرها الروائي بالعراق وأتى بما يقابلها من معالم أمريكية لدليل على أصالة العراق العجيب واحتضانه لمعالم أثرية يرجع تاريخها إلى آلاف القرون، متجاوزة بذلك معالم أمريكا والتي أفصحت عنها تلك الثنائيات الضدية.

والملاحظ أن الحضارة العراقية احتضنت تلك المعالم وكانت قبلة الزوار والسياح قبل أمريكا التي لم تبن تلك المعالم إلا في وقت متأخر وهذا ما أراد الروائي إيصاله إلى ذهن المتلقي فأمريكا لم تختر أي وطن بل الوطن العجيب "العراق" لما له من أهمية كبرى ولاستغلال تلك الثروات.

علاوة على ما ذكر يتضح أن الخطابات الروائية جاءت مفعمة بالنصوص الجغرافية الغائبة وهذا أمر لا مناص منه، إذ يستحيل نمو الأحداث واستمرارية السرد في غيابها، وقد شكلت تلك المواقع دلالات متنوعة، ما أدى إلى انفتاح الخطابات السردية على آفاق رحبة، وقد جعلها الروائي تنبض بالحياة تحس وتشعر، تنمو وتتطور، ما أدى إلى ديمومة النصوص الحاضرة، وإكسابها الخلود وجعلها متجددة عبر الدلالات المتولدة.

5/ التناص السياسي:

استدعى الروائي التناص السياسي الذي عبّر عن إيديولوجيات معينة على مستوى محلي أو إقليمي أو دولي، يقول:"يصفقون على أعداء أمريكا، يصفرون على النواب الذين يصفونهم بالانتهازيين وعملاء بوش..."[1].

جاء هذا المقطع على لسان البطل في حديثه عن شباب كفر كرم الذين يأتون إلى المقهى لمشاهدة أخبار بلدهم المأساوي إذ أنهم يساندون أعداء أمريكا ويصفون النواب بعملاء بوش، يستدعي المقطع السابق شخصية بوش (1946-) وهو رئيس الولايات المتحدة الثالث والأربعون وقد أبدى اهتمامه بقضية العراق التي رأى بأنها تشكل خطرا كبيرا على

[1]ـــ السابق، ص: 99

مصالح الولايات المتحدة من خلال الاستحواذ على أسلحة الدمار الشامل ودعا الأمم المتحدة للتدخل عسكرياً للتخلص من الأسلحة، فبدأت حرب العراق في 20 مارس 2003، بحجة تخليص العراق من أسلحة الدمار الشامل وإزالة صدّام حسين من السلطة، وهذا ما أكده المقطع السردي الآتي:"وتعود فكرة تدمير العراق إلى اللحظة التي وضع فيها صدام حسين الحجر الأساس لمصنعه النووي"[1]، ترأس صدّام حسين (1937–2006) السلطة في العراق سنة 1979م وكان من أهم الشخصيات السياسية التي كان لها دور بارز في التاريخ السياسي واستهدفت القوات الأمريكية العراق بحجة أسلحة الدمار الشامل التي يملكها صدام وبرامج لها، لكنها في الحقيقة كانت لها أسباب خفية وهي السيطرة على العبقرية العراقية بعدّ العراق آنذاك من أغنى البلدان العربية معرفة وعلما.

علاوة على ما ذكر يمكن القول إن التناص السياسي كان له دور بارز في النصوص الروائية فصوّر لنا بعض المشاهد التي تعبر عن العشرية السوداء التي عاشتها الجزائر، ليكشف عن الملابسات والوضع السياسي، كما أن التناص السياسي كان حاضرا بواقعيته عند حديث الروائي عن الوضع في أفغانستان وذكره للسياسيين، لذا حاول الكاتب نزع الستار عن الجو السياسي والطغيان والاستبداد، وتهميش طاقات الشعب الجزائري، الأفغاني، الفلسطيني، العراقي، ما تبين للقارئ معرفة أحداث تلك الشعوب واسترجاع أزماتها الماضية عبر تلك المشاهد التي أكسبت النص مسحة درامية تفوق ذلك إلى الملحمة.

---

[1] ـالسابق، ص: 311.

6/ التناص الأدبي:

يبين المقطع السردي الذي تقاطع مع دلالات الأبيات أن دوام الحال من المحال فالإنسان في حياته خاضع لتقلب الزمن وأحداث الأيام، يسعد ويفرح تارة ويحزن ويتألم تارة أخرى، فأهل بغداد كانوا ينعمون بالحرية والهناء وسرعان ما تقلب الزمن فصاروا لا يسمعون إلا طلقات الرصاص ودبابات العدو التي تحصد الآلاف من العراقيين، لذا يشي هذا المقطع بحنين البطل إلى الماضي، وحسرته عليه، وحزنه وعدم رضاه بالأوضاع الراهنة، فتفاعل هذا المقطع مع النصوص السابقة وتقاطع معها معبرا عن تناقضات الزمن واختلافاته بين الماضي والحاضر، وهذا ما زاد النص اللاحق إشراقا وجمالية، ونواصل في تناصات الروائي من خلال قوله:"تجري الرياح بما لا تشتهي السفن"[1]، استدعى قول الشاعر المتنبي:

مَا كُلُّ مَا يتَمَنّى المرْءُ يُدْرِكُهُ تجْرِي الرِيَاحُ بمَا لاَ تشْتَهِي السُّفُنُ[2]

الإنسان يأمل دوما أن تتحقق كل طموحاته وأمنياته ولكن للأسف قد يأخذه الموت دون تحقيق ذلك أو تشوبه شائبة، وقد شبه الشاعر ضمنيا المرء في عدم تحقيقه لرغبته بالسفينة التي تأمل أن تصل بسلام لتحقيق طموحاتهالكن هبوب الرياح يعيق سيرها ويغير اتجاهها، فاحتفظ الروائي في مقطعه السردي بالشطر الثاني من البيت بلفظه ومعناه، دون ذكر الشطر الأول، فالبطل حلمه أن يعيش في سعادة كما يحلم كل الشباب في بلاده لكن للأسف عكر الأعداء صفو أحلامهم وأعاقوها بطغيانهم واغتصابهم للعراق، ولذا على المرء أن يرضى بالواقع.

---

[1]ـ السابق، ص: 91.

[2]ـ المتنبي، الديوان، ص: 334.

يتقاطع المقطع السابق مع بيت شعري آخر عن طريق المخالفة في قول الشاعر:

تجْري الريَاحُ كمَا تجْري سَفِينَتُنَا نَحْنُ الريَاحُ ونحْنُ البَحْرُ والسُّفُن

فاقْصدْ إلى قِمَمِ الأشْياءِ تُدْركُهَا تجْري الريَاحُ كَمَا رادَتْ لهَا السُّفُنُ

الواضح من البيتين الشعريين أن الرياح توافق السفن، والسفن هي المرشدة للرياح ،وهذا يدل على أن الإنسان باستطاعته تحقيق آماله، وعليه فقط أن لا يرضى بالواقع كما هو (استسلامه وجعل المعيقات تحدد مساره) بل يسعى دوما لصناعة هذا الواقع عن طريق التحدي والإصرار، فالبطل مثلا عليه السعي لأجل التغيير وطرد الظالم من بلاده لا أن يرضى بالوضع مستسلما له، وعن طريق المخالفة حاول الروائي إيقاظ المتلقي وتحسيسه بالوضع الذي تترجمه الأحداث ويعبر عنه الواقع المعيش للعراقيين.

يسترجع الشاعر أسطورة سيزيف في قوله: "إن الرجال ليسوا إلا مهارات خفية، عذابات طويلة، يقومون غريزيا بدور سيزيف، إنهم عاطفيون وبلداء؛ من طبيعتهم التحمل إلى غاية الموت"[1]، استحضر الروائي "أسطورة سيزيف" وهي مقالة فلسفية من 120 صفحة ألفها" ألبير كامو" وتم نشرها سنة1942 م، والمقالة عبارة عن مدخل لفلسفة العبث، والبحث غير المجدي للإنسان عن معنى، وفي الفصل الأخير، يشبه "كامو" عبثية حياة الإنسان بوضع سيزيف، شخصية من الميثولوجية الإغريقية قدرها أن تحمل صخرة إلى أعلى قمة جبل وما أن تفعل تتدحرج الصخرة إلى الأسفل فيعود سيزيف ويحملها من جديد وهكذا

[1] ــ أشباح الجحيم، ص: 97.

دواليك إلى ما لانهاية له، ويختم "كامو" مقالته بقوله "المثابرة في حد ذاتها كافية لتملأ قلب الإنسان. على المرء أن يتصور سيزيف سعيدا"، شبه الروائي على لسان البطل أعمال رجال كفر كرم كعمل سيزيف، تقاطعا في خاصيتين: التحمل والإصرار، إضافة إلى أن رجال كفر كرم فقراء ويتظاهرون بأنهم أغنياء، وعبر هاته الأسطورة السيزيفية انفتح النص الروائي على عوالم غنية بالإيحاءات والرموز واكتسب سلطة تأثيرية تجذب القارئ لمتابعة الأحداث.

استدعى الروائي الفلسفة المكيافيلية في قوله عن الغرب: "حيث الماكيافيلية تعجن وتبرر مبادراتهم وطموحاتهم. ما عأسهم يفهمون في عالمنا نحن"[1]، وضّح هذا المقطع نظرة بعض العراقيين تجاه الغرب وخاصة أمريكا بفلسفتها المكيافيلية نسبة إلى الفيلسوف السياسي الإيطالي نيكولو دي برناردو دي مكيافيلي (1469–1527) في كتابه "الأمير" عام 1513، وخلاصته أن قوانين السلوك السياسي لا يمكن أن تلتمس أو تطلب في نطاق علم الأخلاق أو في أيما نطاق آخر خارج دنيا السياسة، وأن علينا أن نستخلص هذه القوانين من الممارسة السياسية نفسها كما عرّفها مكيافلي في عصره ومن تجارب التاريخ أيضا، وأن كل وسيلة مهما تكن لا أخلاقية أو غير قويمة مبررة من أجل تحقيق السلطان السياسي. فالغاية تبرر الوسيلة.

وهذا شعار الغربيين، فهم يدّعون نشر السلام والحفاظ على السياسة في العراق، بمختلف الوسائل حتى وإن أدت هاته الوسائل إلى هلاك الشعب العراقي، ويستدعي لنا هذا الشعار تناصا أدبيا فالشعراء الصعاليك قديما

[1] السابق، ص: 221.

كانت لهم غاية نبيلة وهي توفير حياة كريمة للفقراء والمستضعفين من القبائل فغايتهم كانت سامية ونبيلة لأنهم حاولوا إيجاد نوع من العدالة الاجتماعية في أوساط القبيلة بين الغني والفقير.

ولكنهم كانوا يعتمدون على أساليب يرفضها المجتمع كالسرقة والنهب من أجل تحقيق غاياتهم وما دفعهم لمثل هذه الوسائل هم أبناء قبائلهم وأغنياء القوم لأنهم نبذوهم وخلعوهم ولم يعترفوا بهم. يتجلى عبر المقطع السابق أن الروائي أماط اللثام عن الأمريكيين ووسائلهم القمعية لتحقيق مصالحهم وغاياتهم في العراق.

استحضر الروائي أبياتا شعرية في قوله: "أن نقبل خداع ومظالم الذين نتخذهم حلفاء لنا، أن نكظم غيظنا"[1]، يكرر المقطع قائلا: "كظم شاكر غيظه كي لا ينقض عليّ"[2].

فالمؤمن يكظم غيظه رغم ما يلاقيه من عنف أو ظلم، لما في ذلك من أجر فكظم الغيظ باب من أبواب الجنة لذا فإن البطل كان يكظم غيظه، على الرغم من خداع أصدقائه له، كما كان يفعل كاظم صديقه الذي تمالك نفسه ولم يظهر غضبه، عند تأخر صديقه عن موعدهما، تداخل المقطع السابق وأبيات شعرية عديدة منها قول محمود سامي البارودي:

تَعَلَّمتُ كَظْمَ الغيظِ فيهِم، وإنَّهُ لَحِلمٌ، ولَكِن لِلحَفِيظَةِ مَاحِقُ [3]

وغير بعيد عن هذا المعنى قول أحد الشعراء:

وكُنتُ إذَا الصَّدِيقُ أرادَ غَيْظِي وشرَّقني علَى ظَمأ بريقِي..

---

[1]- السابق، ص: 344.

[2]– السابق، ص: 353.

[3]– البارودي، الديوان، دار العودة، تحقيق: علي الجارم/ محمد شفيق معروف، 1998، ص: 425.

يتضح عبر المقطع السردي الجمالية الفنية من خلال خرق البنية اللغوية والدلالية للنصوص الشعرية. ويذكر الروائي في موضع آخر الأدب الأنجلو سكسوني في قوله: "صعدت إلى غرفتي. على السرير، جراب قشيب من الجلد الأسود. بداخله، ...حقيبة صغيرة بها لوازم الغسل، أربعة كتب من الأدب الأنجلو سكسوني"[1]، نسب هذا الأدب للأنجلو سكسونيون وبالإنجليزيةAnglo–Saxons :وهم القبائل الجرمانية التي غزت وسكنت بريطانيا في القرن 5 والقرن 6، تلك القبائل هي الأنجلز، والسكسون، واليوت، وقد تركوا أوطانهم الأصلية وهي شمال ألمانيا وهولندا و الدانمارك، واتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية، واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية في القرن الخامس بعد الميلاد، واستخدم مصطلح (أنجلو ساكسون) للتفريق بين الغزاة وبين سكان بريطانيا الذين كانوا فيها قبل مجيء هؤلاء الغزاة".

أخذ البطل كتابات الأدب الأنجلو ساكسوني ليطالع فيها وتزوده بمعلومات وتكون رفيقا له في السفر، الذي يتطلب منه الصبر وقوة التحمل لأجل إنجاح العملية التفجيرية التي هو بصدد القيام بها، وعبر هذا المقطع يتضح اهتمام البطل بوسائل مساعدة لأجل القيام بمهمته وغايته.

جاء في مقطع آخر: "ولا يزال الرجل يساوي لسانه، يفي بالوعد، ويحافظ على الأمانة، ولم تتغيّر معالمه القديمة بقيد أنملة؟"[2]، كما تقاطع مع المثل القائل: "لسانك حصانك إذا صنته صانك وإذا خنته خانك". فالرجل تقاس رجولته بلسانه، إن كان وفيا للوعد، أمينا، أما الخائن المنافق فلا رجولة له.

---

[1]ـ أشباح الجحيم، ص: 362-363.

[2]ـ السابق، ص: 221.

لذا وظف الروائي المقطع على لسان السيد الذي يصف العربي المسلم، الذي يحمل أروع الصفحات في الحضارة البشرية، محافظا على معالي الأخلاق، ليس كالغربي الذي ينتهك الحرمات يتغذى القوي بلحم الضعيف، وعبر هذا الاستحضار والتباين الحاصل بين العربي والغربي تتضح المعالم والدرر التي يحتفظ بها العربي على مر التاريخ، كما تزيح الغطاء عن المستبد الظالم كما يشهد له التاريخ البشري بالجور والطغيان.

مما سبق نستنتج أن التناص الأدبي وليد التراكمات الثقافية لدى الإنسان فهي من أهم الدواعي التي أسهمت في إرسائه، وهي محكومة بسمة التوليد والاستنتاج وكلما طال عمر الثقافة كانت أكثر حظا في التعالق ما بين الحاضر والماضي، سواء عن طريق المطابقة أو المخالفة، ونجد أن أغلب التناصات الأدبية كانت شعرا إذ مزجت النصوص الشعرية بالنصوص الروائية فكانت العلاقة بينهما وثيقة وتأثيرية، فاستحضر النص اللاحق السابق وقام بإحيائه عن طريق التبديل والتحوير، أو الاستنصاص وتبقى الفجوة الزمنية عاملا مهما في نوع الناتج وطبيعته، إذ الظروف تختلف باختلاف العصور وتباينها.

علاوة على ما ذكر يتضح أن الخطابات الروائية جاءت محمّلة ومثقلة بتراث ضخم سواء كان هذا التراث ديني أم تاريخي أم شعبي أم أدبي أم سياسي، ما أضفى على النصوص جماليات فنية وفتحها على قراءات تأويلية متعددة.